اسم المقياس: النقد الأدبي القديم

اسم الأستاذ: محمد سيف الإسلام بـوفـلاقـــــة

المستوى:سنـة :01،ليسانس

التخصص:جذع مشترك ميدان اللغة والأدب العربي

تراجم أعلام النقد

ابن الخطيب أنموذجاً

ابن الخطيب

: لسان الدين بن الخطيب:حياته،عصره،آثاره

أولاً:حياته:

تعددت الأسفار،والدراسات التي تطرقت إلى حياة لسان الدين ابن الخطيب،ولعل ابن الخطيب كان في طليعة علماء الأندلس الذين حظوا باهتمام كبير من لدن مختلف الباحثين،والدارسين القدماء،والمعاصرين المشارقة،والمغاربة على السواء،وهذا الأمر يعود لجملة من الأسباب، قد يكون في مقدمتها موسوعية،و غزارة إنتاج ابن الخطيب،فالرجل خاض في شتى أصناف المعرفة،وهو شخصية متعددة الجوانب فهو الشاعر،والمؤرخ البارع،والأديب،والصوفي،والفيلسوف،والوزير،والسياسي، و بالتالي فمن الصعوبة حصر جميع ما كُتب عنه.

إن ابن الخطيب يعتبر أحد كبار العلماء الموسوعيين،ويؤكد عدد كبير من المؤرخين،والدارسين على أنه أعظم شخصية ظهرت بالأندلس في القرن الثامن،وقد كان عبقرية متعددة النواحي.

كان ابن الخطيب «يمثل بعبقريته،وقوة نفسه،وأصالة تفكيره،وروعة بيانه،وجزالة شعره أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى من قبل تلك النماذج العلمية،والأدبية الباهرة،التي يزدان بها تاريخ التفكير الأندلسي،وكان بتعدد جوانبه،وسعة آفاقه،أكثر من وزير،وسياسي،وكاتب،وشاعر. كان مزيجاً من عبقريات متعددة،بلغ القمة في كل منها،ويندر أن تجتمع في شخص واحد،وكانت غرناطة تلك الأندلس الصغيرة،أضيق من أن تتسع لمثل عبقرياته،ومن ثم فإنا نراه خلال حياته المضطربة، سواء في المغرب أو الأندلس، يرتفع حيناً إلى الذروة،وينحدر أحياناً إلى غمر المحنة،تلاحقه تلك القوى الخصيمة،التي تضيق بنبوغه،وخلاله اللامعة.

وقد دون لنا ابن الخطيب ترجمة نفسه كاملة،في نهاية كتاب (الإحاطة)هذا، عدا ما أورده في سياق الكتاب،في مواضع عدة،عن مراحل خدمته السلطانية،وقص علينا كثيراً من حوادث حياته الشخصية،والسياسية في مختلف كتبه الأخرى،ولاسيما (نفاضة الجراب)،الذي يقص علينا فيه حوادث إقامته الأولى في المغرب،وسلا،و(اللمحة البدرية)،و(ريحانة الكتاب) الذي يضم كثيراً من رسائله السلطانية [1]،وقد دون له معاصره،وصديقه الفيلسوف ابن خلدون ترجمة في تاريخه الكبير،ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر»[2]

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني،وذلك نسبة إلى سلمان،وهي بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية،أو حي من مراد من اليمن ،عرب اليمن القحطانية،وتنتمي أسرة ابن الخطيب إلى إحدى هذه القبائل،وقد وفدوا على الأندلس بعد

---

(1) محمد عبد الله عنان:مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، ص:18.

(2)ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون المُسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ص:404.

الفتح،ومنهم جماعة من الشام،واتخذوا قرطبة مقراً لهم، «وقد كانت قرطبة،وأحوازها منذ الفتح منزل قبائل الشام الوافدة على القطر الجديد،والظاهر أن بني سلمان كانوا ينتمون إلى الحزب المعارض للبلاط أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس،فلما حدثت واقعة الربض المشهورة (ضاحية قرطبة)،وثار أهل قرطبة بتحريض حزب الفقهاء المعارض للحكم(سنة:202هـ-817م)،واستطاع الحكم أن يمزق الثورة،وأن ينكل بأهل الربض،غادر قرطبة كثير من المعارضين من الفقهاء،وغيرهم،وكانت منهم أسرة لسان الدين »[1]التي هاجرت إلى طليطلة وفق ما ذكره ابن الخطيب نفسه في مقدمة الإحاطة،وقد مكثت أسرته ما يقارب القرن ونصف القرن بالمدينة،وحينما شعرت بالأخطار المحدقة بها،حينما أضحت (طليطلة) عرضة لهجمات النصارى،غادرتها إلى مدينة (لوشة)،وهي المدينة التي ولد بها ابن الخطيب في الخامس والعشرين من رجب713هـ،(16نوفمبر1313م) [2].

وبالنسبة إلى لقب (الخطيب)ذكر لسان الدين أن بيتهم كان يطلق عليه تسمية (بني الوزير)ثم سموا (ببني الخطيب)،وهذه التسمية ترجع إلى عهد جده سعيد،الذي يعتبر أول من استوطن مدينة (لوشة)من أسرتهم[3]،وقد كان«عالماً ورعاً،وكان يلقي دروسه،ومواعظه تحت أطلال برج يجاور أملاك أسرته،ويقع على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية ماراً بلوشة،ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب،وأورث هذا اللقب لبنيه،فعرفوا ببني الخطيب من ذلك الحين.ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله،وكان من أكابر العلماء،والخاصة،ويترجمه لنا في الإحاطة.وقد ولد سنة: 672هـ، واستقر حيناً في غرناطة،ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم القديم،ثم عاد إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبي الوليد إسماعيل،وهو الذي جلس على عرش غرناطة في سنة:713هـ (1314م)،ولما توفي السلطان أبو الوليد إسماعيل قتيلاً في سنة: 725هـ (1325م)،خدم عبد الله من بعده ولده السلطان أبا عبد الله محمد،ثم شقيقه السلطان (أبو الحجاج يوسف) أعظم سلاطين غرناطة،وقد ولي العرش سنة: 733هـ (1332م).وخدم عبد الله في ديوان الإنشاء،مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبي الحسن بن الجياب،وأسبغ عليه لقب الوزارة،ثم توفي قتيلاً مع ولده الأكبر أخ لسان الدين في موقعة طريف الشهيرة التي هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبي الحسن المريني عاهل المغرب،والسلطان أبي الحجاج يوسف أشنع هزيمة،وذلك في جمادى الأولى سنة: 741هـ(أكتوبر سنة 1340م)،وسقطت على إثرها طريف،والجزيرة الخضراء في أيدي النصارى،وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون في المغرب،والأندلس مثلها منذ زمن بعيد».[1]

---

(1) محمد عبد الله عنان:المصدر نفسه،ص:19.

(2) جرجي زيدان:تاريخ آداب اللغة العربية،مج2،ص:225.

(3) عمر فروخ:تاريخ الأدب العربي،ج6،ص:503.

(4)عبد الله عنان:المصدر السابق،مج1،ص:20 وما بعدها.

دخل لسان الدين الكتاب بمدينة (لوشة)مسقط رأسه،حيث حفظ القرآن الكريم وجوده،ثم تعلم مبادئ اللغة العربية على مجموعة من المعلمين من بينهم (أبو القاسم بن جزي)،كما أخذ النحو عن شيخ النحاة الإمام أبي عبد الله الفخار الألبيري[1]،وغيره من العلماء،والمربين،والفقهاء،وقد عرف ابن الخطيب منذ طفولته بطموحه،وقد

---

(1) خير الدين الزركلي:الأعلام،ج6،ص:235.

(2)الحسن بن محمد السائح:منوعات ابن الخطيب،ص:35.

(3) عبد الهادي بوطالب:وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب،ص:48،وما بعدها.

أعانه على ذلك الطموح ذكاؤه الحاد،وفهمه الثاقب،ورؤيته البعيدة المدى،وقد كان انتقال أسرته من(لوشة)إلى(غرناطة)نقطة تحول،حيث عين والده عبد الله مقتصداً في بلاط ابن الأحمر الذي استعمله على مخازن الطعام،وقد أتاحت له الفرصة في غرناطة الدراسة على عدد من كبار العلماء المتميزين فأخذ عنهم الأدب كشيخ العدوتين الرئيس أبي الحسن بن الجياب،والفيلسوف أبي زكريا بن هذيل الذي اختص بصحبته،وفي هذه الفترة بدأ يظهر تفوقه،ونبوغه في الشعر،والترسل،والطب،والفلسفة،والتاريخ،وبعد سنوات قليلة لمع نجمه [1].

فقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده،وحينما توفي والده دعي للحلول مكانه،وكان في الثامنة والعشرين من عمره،فتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس الذي كان يشغل منصب الوزارة لدى السلطان (أبو الحجاج يوسف الأول النصري)،وقد استفاد ابن الخطيب استفادة كبيرة من أستاذه ابن الجياب في ديوان الإنشاء،وتأثر أيما تأثر به في أساليب النظم،والنثر،فملك زمام أرفع الأساليب النثرية والشعرية،وقد تجلت آثار أستاذه في رسائله السلطانية [1]،التي كتبها على لسان ملوك الأندلس،والمغرب وقد وصفها العلاّمة ابن خلدون بالغرائب،نظراً لسحرها،وجمالها،وروعتها [2].

وبعد وفاة ابن الجياب في الطاعون الجارف الذي حل بالمدينة في شوال سنة: 749هـ(يناير سنة:1349م)،تولى لسان الدين رئاسة الكتاب [3]،وهناك خلاف في تاريخ توليه منصب الوزارة الأولى،وقد سعى

---

(1)ابن خلدون:كتاب العبر،ج7،ص:690.

(2) محمد الطيب محمد عبد النافع وإبراهيم عبد الرحيم يوسف:تاريخ الأدب والنصوص الأدبية،ص:459.

(3) دراسة وتحقيق ديوان الصيب،والجهام،والماضي،والكهام،ص:55 وما بعدها.

الدكتور محمد الشريف قاهر إلى تصويب الأخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين فقال: « تولى ابن الخطيب منصب الوزارة للمرة الأولى في أخريات شوال من عام: 749هـ لأمير المسلمين بالأندلس السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري،وكان يبلغ من العمر آنذاك خمسة وثلاثين عاماً تقريباً.وقد أخطأ جرجي زيدان حين جعل توليه الوزارة للمرة الأولى عام:733هـ،عقب اعتلاء أبي الحجاج لعرش غرناطة.فبالإضافة إلى تصريح المقري بتاريخ: 749هـ في نفح الطيب،فيزيد تأكيداً بأنه تولى الوزارة بعد شيخه أبي الحسن علي ابن الجياب الذي توفي عام: 749هـ بسبب مرض الطاعون الجارف الذي عم بلاد الأندلس والمغرب آنذاك ،وأودى بخيرة رجال العلم،والأدب،وبقي ابن الجياب وزيراً حتى وفاته،وكان ابن الخطيب مساعداً له،وأميناً لسره»[1].

وقد كسب ابن الخطيب ثقة السلطان،وصار من المقربين إليه،وفي هذه المرحلة تألق نجمه،و «عظمت منزلته،وأغدق السلطان عليه عطفه،وآثره بثقته،وجعله كاتب سره،ولسانه في المكاتبات السلطانية،وصدر منها بقلم ابن الخطيب طائفة من أبدع الرسائل الملوكية...،وجمع الكثير منها فيما بعد في كتابه (ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)،وكذلك نقل إلينا المقري في(نفح الطيب)مجموعة منها[1].

ويصف لنا ابن الخطيب في ترجمته في (الإحاطة)مركزه في الوزارة يومئذ،ومكانته،وما حباه به السلطان من الثقة،والإيثار في قوله (فقلدني السلطان سره،ولما يستكمل الشباب،ويجتمع السن،معززة بالقيادة،ورسوم الوزارة،واستعملني في السفارة إلى الملوك،واستنابني بدار ملكه،ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه،وائتمنني على صوان حضرته،وبيت ماله،وسجوف حرمه،ومعقل امتناعه)،ولما توفي السلطان يوسف أبو الحجاج قتيلاً في يوم عيد الفطر سنة: 755هـ(أكتوبر1354م)خلفه في الملك ولده السلطان أبو عبد الله محمد،الذي لقب فيما بعد

---

(1) ينظر:المقري التلمساني:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،ج6،ص:13-162.

(2)عبد الله عنان:المصدر السابق،مج1،ص:22 وما بعدها.

(3) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي:الأدب المغربي،ص:232.

بالغني بالله،واستمر الحاجب رضوان مضطلعاً برئاسة الوزارة،واستمر ابن الخطيب في منصبه معاوناً له،وندب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان المتوفي.وأرسله السلطان الجديد لأول ولايته سفيراً عنه إلى السلطان أبي عنان المريني عاهل المغرب على رأس وفد من رجالات الأندلس،وهو يعرب في رسالته إليه عن أمله في تجديد أواصر المحبة،والوصل التي كانت بين أبيه،وبين السلطان أبي عنان،ويستنصره،ويطلب عونه على مقاومة ملك قشتالة»[1].

ولقد استقبل ابن الخطيب استقبالاً مميزاً،وحظي برعاية كريمة،وتقدير عميق من قبل السلطان أبي عنان،وكان استقباله في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة:755هـ[2].

ويفصل الدكتور محمد الشريف قاهر رحلة ابن الخطيب إلى المغرب فيذكر أن في أواخر عام: 755هـ«على إثر مقتل السلطان أبي الحجاج أمير المسلمين بغرناطة بعث السلطان الجديد (محمد الغني بالله)وفداً إلى المغرب لطلب النجدة،والغوث،وتجديد عهد الصداقة،والتعاون بين العدوتين،الأندلس والمغرب،على نحو ما جرت عيه العادة منذ قديم الزمان،وكانت رئاسة الوفد لوزيره ابن الخطيب الذي وفق توفيقاً كاملاً في أداء مهمته،وقد أنشد أبا عنان قصيدة رائعة مطلعها:

خَلِيفَةَ اللهِ سَاعَدَ القَدَرُ عُلاَكَ مَا لاَحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ

فتأثر السلطان المريني أبو عنان،والحاضرون في الحفل بالقصيدة أيما تأثر،وقال السلطان لابن الخطيب:اجلس،والله ما ترجع إليهم إلا بكل طلباتهم،وقديماً قيل:إن من البيان لسحرا،وإن من الشعر لحكمة.وعاد الوفد إلى غرناطة محملاً بالهدايا الثمينة،والوعود الصادقة الخالصة بفضل سياسة رئيس الوفد،ولباقته،وجميل إشارته،وفصيح لسانه،وفي هذه السفارة توطدت العلاقة بين ابن الخطيب،وبين المغرب،حكومة وشعباً،وعلماء،وأدباء،فبقي قلبه معلقاً بالمغرب »[1].

وفي عام:760هـ تبدأ مرحلة جديدة من حياة ابن الخطيب،ففي هذه السنة اندلعت الثورة بغرناطة في شهر رمضان،وقد أدت هذه الثورة إلى فقدان السلطان الغني بالله الملك،وتولى الملك مكانه شقيقه الأمير إسماعيل،وقد قتل أثناء هذه الثورة الحاجب(أبو النعيم رضوان)،وفر الغني بالله إلى وادي آش[2].

وفيما يتعلق بتفاصيل تلك الثورة فسببها [1]. أن الأمير إسماعيل «كان معتقلاً في بعض أبراج قلعة الحمراء،وكانت تؤازره جماعة من الزعماء الناقمين على الغني بالله،وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله،وتعمل

---

(1) دراسة وتحقيق ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام،ص: 57وما بعدها.

(2)خير الدين الزركلي:المرجع السابق،ج6،ص:235.

سراً لإسقاط الغني بالله،وإجلاسه في الملك مكانه،وكانت أمه المقيمة بالقصر،تؤيد مشاريعه بالسعي،والبذل الوفير،وكان السلطان قد تحول بولده إلى سكنى قصر (جنة العريف)الواقع شمال شرقي قصر الحمراء،فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك وهاجموا قلعة الحمراء (28رمضانسنة:760هـ)،ونفذوا إلى دار الحاجب رضوان،وقتلوه بين أهله،وولده،ونادوا بإسماعيل أخي السلطان ملكاً مكانه.وشعر محمد الغني بالله بعبث المقاومة ففر إلى وادي آش»[2].

أمام هذه التغيرات التي طرأت أضحى ابن الخطيب في وضعية جد حرجة،فالملك الذي كانت تربطه به علاقة وطيدة أزيح عن الحكم،ولم يجد من طريقة للحفاظ على منصبه سوى مصانعة الملك الجديد،وسعى إلى استمالته،فمنحه منصب الوزارة مؤقتاً [3]،وبعد تحريض مجموعة من حساد ابن الخطيب،ومنافسيه،شكك في نواياه،وقرر القبض عليه،وتمت مصادرة جميع أملاكه،ومتاعه،وبين عشية،وضحاها،فقد ابن الخطيب ثروته العريضة[4].

وقد قص علينا تفاصيل هذه المحنة في كتاب (الإحاطة)بقوله:« وتُقبض علي،ونكث ما أبرم من أماني،واعتقلت بحال ترفيه،وبعد أن كبست المنازل،والدور،واستكثر من الحرس وختم على الأعلاق،وأبرد إلى ما نأى،فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر،ولا ربات الأمثال،في تبحر الغلة،وفراهة الحيوان،وغبطة العقار،ونظافة الآلات،ورفعة الثياب،واستجادة العدة،ووفور الكتب،إلى الآنية والفرش والماعون،والزجاج والطيب،والذخيرة،والمضارب والأقمشة،واكتسحت السائمة،وثيران الحرث،وظهر الحمولة،وقوام الفلاحة،وأذواد الخيل،فأخذ الجميع البيع،وتناهبتها الأسواق،وصاحبها البخس،ورزأتها الخونة،وشمل الخاصة،والأقارب الطلب،واستخلصت القرى،والجنات،وأعملت الحيل،ودست الإخافة،وطوقت الذنوب،وأمد الله بالصبر،وأنزل السكينة،وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى،وتعلقت الآمال به،وطبقت نكبة مُصحفية مطلوبها الذات،وسبب إفاتتها المال،حسبما قلت،عند إقالة العثرة،والخلاص من الهفوة»[1].

---

(1) ينظر:ابن الخطيب:اللمحة البدرية في الدولة النصرية،القسم الخامس الخاص بنسق الدول،واتصال الأواخر منها بالأول،ص: 42 وما بعدها.

(2)عبد الله عنان:المصدر السابق،مج1،ص:24.

(3) محمد رضوان الداية:نثير فرائد الجمان لابن الأحمر،ودراسة في حياته،وأدبه،ص:23.

(4) عمر فروخ:المرجع السابق،ج6،ص:505.

(1) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة،مج1،ص:24 وما بعدها.

(2) عمر فروخ:المرجع السابق،ج6،ص:505.

بيد أن نكبة ابن الخطيب لم تطل،فقد أرسل ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني)إلى ملك غرناطة الجديد،وطلب منه السماح للملك المخلوع (الغني بالله)ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس،والمجيء إلى المغرب،فاستجاب سلطان غرناطة لطلبه،وذلك رغبة منه في الإبقاء على أواصر الود مع بني مرين،والحفاظ على صداقتهم،للاستعانة بهم لضمان مستقبل الدولة الإسلامية التي كانت تتعرض بين الفينة،والأخرى لهجمات النصارى[1]،فتم إطلاق سراح ابن الخطيب مع نفر كبير من الحاشية،والتحقوا بالسلطان الذي كان بوادي آش،ومن ثم وصلوا إلى المغرب الأقصى،وحلوا بمدينة فاس في محرم:761هـ(ديسمبر1358م)،وقد استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالاً حاراً،وأقام على شرفهم حفلاً عظيماً،وبهذه المناسبة ألقى ابن الخطيب قصيدة أصبحت من أروع قصائده،دعاه فيها إلى نصرة سلطانه[2]،يقول في مطلعها:

سَلاَ هَلْ لَدَيْهَا مِن مُخَبَرةٍ ذِكْرُ وهَلْ أَعْشَبَ الوَادِي ونَمَّ بِهِ الزَّهْرُ

وقد شهد ابن خلدون ذلك الحفل بصفته من كبار رجال البلاط المريني،وتحدث عن ابن الخطيب فقال: « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه،فأبكاهم تأثراً،وأسفاً ».

ووصف ابن الخطيب ذلك الحفل بأن القوم كانوا يرتجفون تأثراً،وتسيل منهم العبرات.

وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب الأقصى،وحظي بعناية فائقة من قبل السلطان أبي سالم،وفي هذه الفترة توثقت الصداقة بينه،وبين ابن خلدون «وقد كان كل منهما يسمع عن صاحبه،ويتوق إلى لقائه،حتى جمعت بينهما الحوادث،فقد كان كلاهما أستاذ عصره،وقطره في التفكير،والكتابة،وكان كلاهما وزيراً مستبداً،ومستشاراً لأمراء عصره.

والواقع أن ابن الخطيب قد وجد الحفاوة،والاحترام أينما حل بالمغرب من السلطان ووزرائه،ومن الشعب،وشخصياته،فأنزله السلطان أبو سالم في قصر من قصوره محفوفاً بالعناية،والتعظيم،ثم طلب ابن الخطيب الإذن من أبي سالم في الاستقرار بمدينة (سلا)ليخلو إلى العبادة،والتأليف،وملاقاة العلماء،والصالحين،والزهاد،فأسعف قصده،ولبى طلبه،وقصد ابن الخطيب مع أهله (سلا)،واستقر بها مدة،ثم استأذن السلطان المريني أبا سالم في التجول في جهات مراكش،وزيارة معالمها الأثرية،والتبرك بقبور الصالحين بها،فأذن له بذلك،وكتب إلى ولاته باستقباله،وإكرامه،وتحقيق رغائبه [1]،وكان من نتائج هذه الرحلة الشائقة أن أخرج لنا ابن الخطيب كتابه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)واصفاً فيه هذه الرحلة أجمل وصف،وأدقه،فقد

---

(1) إحسان عباس:الكتبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب،المقدمة،ص8 وما بعدها.

(2) ينظر :محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي:المرجع السابق،بحث خاص عن ابن الخطيب في المغرب،ص:232-248.

ذكر فيه من لقيه من العلماء،والأدباء،والولاة،والكبراء،والشخصيات مع وصف الإقليم جغرافياً،واقتصادياً وكرم سكانه،وعاداتهم»[1].

وفي هذه الفترة توفيت زوجة ابن الخطيب في السادس من ذي القعدة من عام: 762هـ،حينما كان مقيماً بمدينة(سلا)،وقد تألم ألماً شديداً لوفاتها [2]،وقال عن هذا الرزء الفادح الذي حل به،وهو في المنفى: « وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة طرقني ما كدر شربي،ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران،وإناث في بلد الغربة،وتحت سرادق الحشمة،ودون أذيال النكبة،فجلت عليها حسرتي،واشتد جزعي،وأشفيت لعظم حزني،إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة،وصبراً،ومكارم أخلاق،حازت بذلك مزية الشهرة،حيث حلت من القطرين،فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة (سلا)،ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولي القراءة دائماً عليها،وصدر عني مما كتبت على ضريحها،وقد أغرى به التنويه والاحتفال:

رَوْعَ بَالِي وَهَاجَ بِلْبَالِي وَسَامَنِي الثَّكَلُ بَعدَ إِقْبَالِ

ذَخِيرَتِي حِينِ خَانَنِي زَمَنِي وَعُدَتِي فِي اشتِدَادِ أهوَالِ

أَمَا وقَد غَابَ فِي تُرَابِ سَلا وجهُكِ عَنِي فسَلتُ بالسالِي

فانَتظِرِينِي فَالشوقُ يُقَلِقُنِي ويَقتَضِي سُرعَتِي وإعجَالِي»[1].

وعلى الرغم من المحن التي تعرض لها ابن الخطيب في هذه الفترة،فإنه لم يتوقف عن الإنتاج،والتأليف،ومن أهم المؤلفات التي كتبها في تلك الفترة:

1-معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار.

2-نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.

3-اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية.

4-الحلل المرقوقة في اللمع المنظومة.

5-رقم الحلل في نظم الدول.

6-كناسة الدكان بعد انتقال السكان.

7-رسائل في فنون مختلفة،معظمها نظمه شعراً.

---

(1) محمد الشريف قاهر: المرجع السابق،ص: 60 وما بعدها.

(2) عبد المجيد التركي: مقدمة كتاب مثلى الطريقة في ذم الوثيقة للسان الدين بن الخطيب،ص: 14.

(3) ابن الخطيب:نفاضة الجراب في علالة الاغتراب،تحقيق:د.أحمد مختار العبادي،ج:02،ص: 205.

وفي هذه الأثناء وقعت ثورة في فاس فقد فيه السلطان أبو سالم عرشه في التاسع عشر من ذي القعدة762هـ(1361م) [1]،واستولى على الحكم مدبر الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله حيث أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره،وساعده في استرجاع عرشه حينما اندلعت ثورة جديدة في غرناطة صرع فيها السلطان إسماعيل ابن الأحمر على يد الرئيس أبي سعيد،وقد ساعده الوزير عمر بن عبد الله بمنحه مدينة (رندة) التي كانت تابعة لأملاك بني مرين ،واتخذها مركزاً له لتدبير خططه،وبعد فترة غزا ثغر (مالقة)،واستولى على غرناطة،وتربع على العرش من جديد في جمادى الآخرة عام:763هـ(1361م) [2].

وبعد فترة قليلة كتب رسالة إلى الوزير المنفي لسان الدين بن الخطيب بتاريخ: 14جمادى الآخرة يدعوه فيها إلى تقلد منصبه السابق،وقد أثنى فيها عليه أيما ثناء ،ومما جاء فيها قوله: « الفقيه الوزير الجليل الصدر الأوحد،المشير،العالم العلم الكبير الرفيع الشهير...إمام البلغاء،وصدر الخطباء،وعلم العلماء،وكبير الرؤساء...»،فاستجاب ابن الخطيب،وعاد رفقة أسرته،وصحبه،ففي الثامن من شهر رمضان أصدر السلطان قراراً بإعادته إلى منصبه،وفي هذه المرحلة تغيرت الأوضاع،ووجد من يدبر له المكائد،ويزاحمه منصبه،وينافسه على السلطة وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبي يحيى)الذي كان له الفضل الكبير في استرجاع السلطان للعرش،وقد نشب بينهما خلاف،وتمكن ابن الخطيب من التغلب عليه،وأخاف الملك من غدره،ومكائد أشياعه،فاستجاب السلطان لنصائحه،وقضى عليه في شهر رمضان:764هـ(1363م).

وما كاد ابن الخطيب يتخلص من مكائد عثمان،حتى شعر بما يحيط به من دسائس،ومكائد،وفي هذه المرة أحس أن السلطان يستجيب لخصومه[1]،وقد تزعم الحملة ضده هذه المرة كل من:

---

(1) محمد الشريف قاهر: المرجع السابق،ص: 60 وما بعدها.

(2)حمدان حجاجي: حياة وآثار ابن زمرك،شاعر الحمراء،ص: 10.

(1) محمد رضوان الداية: الأدب الأندلسي والمغربي-أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي-ص: 257.

(2)محمد كمال شبانة:مقدمة كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار للسان الدين بن الخطيب،ص:17 وما بعدها.

(3)جرجي زيدان:تاريخ آداب اللغة العربية،مج2،ص:225.

الشاعر محمد بن يوسف المعروف ب(ابن زمرك)،وهو تلميذ ابن الخطيب،ومعاونه في الوزارة.
و قاضي الجماعة أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي،ولي نعمة ابن الخطيب.

وبعد أن خشي ابن الخطيب من دسائس الرجلين قرر مغادرة الأندلس نهائياً،فوصل إلى سبتة،والتحق بتلمسان،واستقبله فيها السلطان عبد العزيز بحفاوة كبيرة،وأكرمه،كما راسل سفراءه للحديث مع السلطان حتى يسمح إجازة أسرة ابن الخطيب،فاستجاب ابن الأحمر لطلبه سنة: 773هـ(1371م) [1].

على الرغم من ابتعاد ابن الخطيب عن غرناطة،إلا أن حقد أعدائه لم يتوقف،وظلوا متخوفين من عودته،فأخذوا يسعون إلى الإطاحة به [2]،والتخلص منه بصفة نهائية،فأخذوا يراجعون ما كتبه أيام شبابه،وكهولته،ولاسيما في كتابه «روضة التعريف في الحب الشريف »،فاتهموه بالزندقة،والخروج عن شريعة الإسلام،وذهبوا إلى أن فيها طعناً في النبي،ومجاراة لمذهب الفلاسفة الملحدين،وروجوا في أوساط العلماء أن كتبه التاريخية الكثير منها هو من قبيل(الغيبة المحرمة).و كان زعيم،ومُروِّج هذه الدعاية تلميذه ابن زمرك الذي خلفه في الوزارة،وتولى تلفيق الاتهام،وصياغته القاضي أبو الحسن النباهي،وأصدر فتوى بضرورة إحراق كتب ابن الخطيب،وتم إحراقها في منتصف سنة: 773هـ،وذلك بمحضر الفقهاء،والمدرسين من العلماء،و أماثيل الفقهاء[1].

---

(1)محمد عبد الله عنان:مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة،ص:36.
(2) ينظر:ابن خلدون:كتاب العبر،مج7،الخبر عن مقتل ابن الخطيب،ص:404 وما بعدها.
(3)ينظر:المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،مج2،مخاطبات ابن زمرك للسان الدين،ص:75 وما بعدها.

وما تجدر الإشارة إليه أن القاضي النباهي كان من أنصار ابن الخطيب،ومن أشد المدافعين عنه،والمحبين له،وتعيينه قاضياً للجماعة تم على يدي ابن الخطيب،وفي كتاب (الإحاطة)نلفي ترجمة متميزة له وضعها ابن الخطيب،ووصفه فيها بأحسن الأوصاف،وبعد أن خبا نجم ابن الخطيب وقف النباهي إلى جانب ابن زمرك،وصار من أشد خصومه[1].

وقد وجه النباهي رسالة إلى ابن الخطيب ملأها بمثالبه،واتهمه بالإلحاد،والزندقة،كما عهد إلى قضاة غرناطة يطالبهم باستصدار حكم الإعدام فيه،وحصل على موافقة السلطان،وبعث القاضي أبو الحسن نوابه إلى السلطان عبد العزيز لمطالبته بتنفيذ الحكم في لسان الدين،غير أن السلطان رفض ذلك [2]،وخاطبهم قائلاً: « هلا أنفذنم فيه حكم الشرع وهو عندكم،وأنتم عالمون بما كان عليه ».كما بالغ السلطان عبد العزيز في العناية بابن الخطيب وإكرامه، ومما يُذكر أن ابن الخطيب قد طالب السلطان عبد العزيز بضم غرناطة إلى مملكته بعد أن لاحظ قوة المغرب،وبعد مدة قصيرة يموت السلطان عبد العزيز ،ويجلس على عرش المغرب ابنه (أبو زيان محمد السعيد)،وهو ما يزال طفلاً،وفي ربيع الآخر 774هـ(1372م) يستولى على السلطة الوزير (أبو بكر بن غازي)،وفي هذه الفترة حاول السلطان ابن الأحمر الإيقاع بابن الخطيب،وطلب من ابن غازي أن يبعث به إليه،ولكنه رفض،فتوترت العلاقة بين النظام القائم في فاس،وغرناطة.[1]

وبعد أن كثرت الأقاويل في الوزير ابن غازي بسبب مبايعته لصبي صغير،ألف ابن الخطيب كتاباً له وسمه ب«أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام».

بعد أن ساءت العلاقة بين فاس وغرناطة بذل ابن الأحمر جهوداً كبيرة لإسقاط نظام ابن غازي فأوغر صدور الأمراء المرينيين،وحرضهم على الثورة،كما سعى إلى إقناع حكام الأقاليم،ولاسيما منهم حاكم سبتة بأنه من الأحسن أن يكون الملك رجلاً عاقلاً راشداً،لا طفلاً صغيراً،وتم الاتفاق على تنصيب الأمير المريني (أبو العباس أحمد بن أبي سالم)ملكاً على المغرب،وأن يكون محمد بن عثمان الوزير مستقبلاً [2]، و قدم له مساعدات ضخمة للإطاحة بالحكم،شريطة تحقيق ثلاثة مطالب رئيسة بعد نجاح العملية:

---

(1) محمد كمال شبانة:المرجع السابق،ص:20 وما بعدها.

(2) عبد المجيد التركي:المرجع السابق ،ص:13.

1-تسليم ابن الخطيب.

2-تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر.

3-تسليم جبل طارق.

بعد أن وقعت بعض الحوادث بالمغرب الأقصى،اندلعت الثورة،وحدث الانقلاب الذي طالما سعى ابن الأحمر من أجل إحداثه،وتم تعيين الأمير(أحمد بن السلطان أبي سالم)والياً على المغرب سنة:776هـ(1374م).

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أمر بالقبض على ابن الخطيب،وسجنه،وذلك تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه،ووصل الوزير ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب إلى فاس يترأس وفداً يحمل عريضة الاتهام،وقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود، وهو واحد من ألد خصوم ابن الخطيب،وتم إحضاره إلى المشور،ومناقشته حول ما نسب إليه من الإدعاءات حول ما ورد في بعض كتبه،وقد أفتى بعض الفقهاء بقتله،وفي الليل دس سليمان بن داود بعض المرتزقة،والأوغاد من حاشيته فدخلوا عليه السجن وقتلوه خنقاً،ودفن بمقبرة (باب المحروق)،وفي الصباح ثم سحب جثثته من جديد،وإحراقها [1] ،ولذلك لقب ابن الخطيب بذي الميتتين،كما لقب بذي الوزارتين،أي السيف والقلم،ويقال له ذو العمرين،لاشتغاله بالتأليف،والكتابة والتصنيف في الليل،وتدبير شؤون الوزارة والمملكة في النهار[2]،وقد كان مقتله في أواخر عام:776هـ(1375م) [3].

وبخصوص العلاقة بين لسان الدين ابن الخطيب،وأدباء عصره،فيمكن أن نمثل لهذه العلاقة بشخصية الأديب الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمد ابن الأحمر، فقد فصلها الباحث محمد رضوان الداية تفصيلاً دقيقاً،وقدم متابعة تاريخية لها،ولذلك سنستند إلى رؤيته المقدمة عن هذه العلاقة،فهو يرى في البدء أن العلاقة بين لسان الدين ابن الخطيب،وابن الأحمر غامضة لسببين اثنين:

---

(1) ابن الخطيب: ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ،ص:85.

(2) خير الدين الزركلي: المرجع السابق،مج6، ،ص:235.

(3) ينظر: بطرس البستاني:أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث،ص:35 و159.

«الأول:أن ما ذكره ابن الأحمر عن تلك العلاقة كان تلميحاً دون الإيضاح،والثاني إعراض لسان الدين عن ذكر إسماعيل بن الأحمر باسمه في أي موضع مما نعرف من مصنفاته،فمنهجه في اللمحة البدرية،والكتيبة الكامنة،وحتى الإحاطة يقتضي أن يذكر إسماعيل هذا فيها،أو في بعضها باعتباره من الأسرة النصرية،أو ممن عنوا بالفقه،والأدب،والثقافة.وما كان حظ إسماعيل هذا من لسان الدين إلا إشارة عابرة فيها من التنكير أكثر مما فيها من التعريف حين قال: (وليوسف هذا ابن يباشر خدمة السلطان).

ولا نعلم شيئاً عن علاقتهما في الأندلس،وعلى كل حال فإن ابن الأحمر غادر الأندلس قبل أن يحتل لسان الدين مكان أستاذه ابن الجياب بعد أن توفي في الطاعون الجارف سنة 749هـ.

أما في المغرب،فقد تردد لسان الدين على فاس مرات،منها سفرة سنة: 755هـ،قدم فيها من الغني بالله إلى أبي عنان،ومنها إقمته في فاس،وغيرها من المدن المغربية،وقت لجوئه مع مخدومه النصري سنة:761هـ،وآخرها حين لجأ لسان الديني إلى البلاط المريني سنة: 773هـ.وكان دأب ابن الأحمر أن يتصل بالقادمين من وطنه،يتسقط أخباره،ويفيد علماً،وأدباً.ومن ذلك ما رواه في نثير الجمان،من أنه لقي أبا البركات البلفيقي(محمد بن محمد السلمي)لما قدم رسولاً من الغني بالله إلى السلطان المريني أبي سالم إبراهيم،ولقي أيضاً لسان الدين،وقد ترجم ابن الأحمر لابن الخطيب مرتين:في نثير الجمان،وفي نثير فرائد الجمان،وذكر نتفاً من أخباره متفرقات خلال الكتابين.ومما يؤسف له حقاً أن ترجمة لسان الدين مفقودة من كتاب نثير الجمان،وهي كما أظن أهم من ترجمته في نثير فرائد الجمان لأنها كتبت في وقت قريب من مصرع ابن الخطيب»[1].

وقد مرت العلاقة بين ابن الخطيب،وابن الأحمر بفترتين:

الأولى:شملت المدة التي سبق لجوء ابن الخطيب إلى بني مرين،وهي مرحلة يصفها محمد رضوان الداية بالعادية«لا يشوبها شيء يعكر صفوها،بل ربما كانت بينهما صداقة،أو علاقة شيخ بمستفيد،فقد سماه في ترجمته لمحمد بن محمد العريف الغرناطي (شيخنا ذو الوزارتين ابن الخطيب...)،وقال في موضع آخر (وأنشدني في الحنين إلى الأوطان ذو الوزارتين الحاجب القائد الخطيب الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى أبو عبد الله محمد بن الفقيه الخطيب الكاتب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن الخطيب السلماني الأندلسي بفاس بتشوق معاهده بالأندلس لما كان بالعدوة،حين خلع عن ملكه مخدومه ابن عمنا السلطان الغني بالله محمد:

أُحِبُك يا مَغنَى الحُقُوق بواجِبِ وأقْطَعُ في أَوصَافِك الغُرِ أَوقَاتِي

تَقسَّم منك التُربُ أَهلِي وَجِيرَتِي فَفِي الظُهَرِ أَحَيَائِي وفي البَطَنِ أَمواتِي

وقال في مقدمة ترجمته(أدركته وخاطبته وخاطبني...)،وهذه الأخبار كافية للدلالة على تلك العلاقة.

---

(1)محمد رضوان الداية: دراسة وتحقيق: نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان،ص:78 وما بعدها.

والثانية:تشمل مدة لجوء ابن الخطيب إلى بني مرين،أو معظمها،إذا سلمنا بما قاله ابن الأحمر من أنهما تصافيا بعد خصام.وقال ابن الأحمر في ترجمة لسان الدين في نثير فرائد الجمان بعد أن عظّمه،ومدحه:(لكن صل لسانه في الهجاء لسع،ونجاد نطاقه في ذلك اتسع،حتى صدمني،وعلى القول فيه أقدمني،بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي،سلطان ذلك الوطن في النفر الجني،والإنسي.ثم صفحتُ عنه صفحة القادر الوارد من مياه الظفر غير الصادر،لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات،ولا يحمد له تتبع العثرات،اتباعاً للشرع الكريم في تحريم الغيبة...).

وفيما عدا هذه الثغرة التي يقول ابن الأحمر إنه رأبها،وفحوى كلامه تدل-بالطبع-على أن ذلك تم في حياة لسان الدين،لأنه لا معنى للصفح عمن صار في الأموات دون الأحياء،فإن مطالع كتب ابن الأحمر،والنقول التي نقلت عنه يشعر بأن إسماعيل بن الأحمر لا يذكر لسان الدين إلا بالإجلال،والإكبار حتى أنه لقبه ب(شيخنا).وقد خصص نحواً من ربع كتابه (نثير فرائد الجمان)لشعر ابن الخطيب،ونثره،وذكر كتبه،وأخباره.ولكننا مع كل هذا لا ندري ما هو السر الذي جعل لسان الدين يُعرض عن ذكر ابن الأحمر،وحدا به لأن يهمله هذا الإهمال المزري مع احتفاله بمن هم دونه»[1].

ثانياً:آثاره:

ابن الخطيب عبقري خالد ،وشخصية موسوعية متعددة المواهب،ترك تراثاً حافلاً،ومتنوعاً في شتى الفنون،والآداب ما بين التاريخ،والأدب،والسياسة،والطب،والشعر،وغيرها،ومؤلفاته تزيد عن ستين مؤلفاً كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين ومن بينهم محمد عبد الله عنان،والبعض الآخر يرى أنها تربو على الخمسين كما يرى الباحث محمد كمال شبانة.

وقد وصل إلينا هذا التراث في أغلبه «ولاسيما المجموعة التاريخية والأدبية التي هي في الواقع لب تراث ابن الخطيب،والتي تلقي أعظم ضوء على تاريخ الأندلس،والمغرب في أواسط القرن الثامن الهجري،والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب التي لم تصل إلينا قد هلك معظمها في محنة إحراق كتبه التي وقعت في غرناطة سنة:773هـ،وهي من كتب الطب،والتصوف،والموسيقى،وأن معظم كتبه التي نجت من تلك المحنة قد وصل إلينا عن طريق المغرب.والواقع أن ابن الخطيب قد وضع كثيراً من كتبه أثناء إقامته منفياً بالمغرب،خلال فترتين

---

(2)محمد رضوان الداية: المرجع السابق،ص:80 وما بعدها.

أولاهما ما بين سنتي: 761هـ،وأواسط سنة: 763هـ،والثانية منذ أوائل سنة: 773هـ،حتى مصرعه في أوائل سنة:776هـ»[1].

من خلال الترجمة التي كتبها ابن الخطيب عن نفسه في آخر كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة » أورد لنا أسماء مؤلفاته،ويبدو أن المحن،والتقلبات التي تعرض لها ابن الخطيب في حياته جعلت الكثير من المؤرخين،والمستشرقين لا يفرقون بين ما ألفه الرجل في المغرب،وبين ما ألفه في الأندلس،ويذهب (ليفي بروفنسال)إلى أن مؤلفات لسان الدين قد بلغت حوالي ستين كتاباً،ولكن لم يبق منها إلا الثلث تقريباً،ولا ريب في أن كتب ابن الخطيب سواءً المخطوطة التي لم تحقق بعد،أو حققت ونشرت لهي موضع تقدير من لدن مختلف الباحثين،والدارسين،وتحتل مركزاً ممتازاً بين المصادر التاريخية المعتمدة، ولاسيما منها ما يتطرق للغرب الإسلامي في المغرب،والأندلس،وستظل تنير سبل العلماء،والمؤرخين،وهي ما تزال تحظى بالتقدير منذ عصره،إلى أيامنا هذه ليس عند العرب فحسب،بل عند غيرهم من الأمم[2].

وفيما يلي نعرض أهم مؤلفاته،ونقدم لمحات موجزة عن بعضها،وذكر البعض الآخر،لأن بعضها مفقود،والبعض الآخر مخطوط،والبعض منسوب خطأً.

1-التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى(تراجم وتاريخ):

يحتوي هذا الكتاب على لمحات مختصرة عن تاريخ مملكة غرناطة،وذلك منذ نشأتها على أيدي بني نصر،كما أن فيه تراجم لأعيان الأندلس في القرن الثامن الهجري،وفيه ترجم ابن الخطيب لوالده،ولنفسه،كما نوه بمملكة بني الأحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف[1].

2-روضة التعريف بالحب الشريف:

وهو كتاب وضعه في التصوف،وقد كان هذا الكتاب من بين الكتب التي جلبت الكثير من الأذى لابن الخطيب،إذ« يعزو المؤرخون إلى هذا الكتاب أنه كان وثيقة الاتهام بالإلحاد،والزندقة ضد ابن الخطيب،حينما

(1) محمد عبد الله عنان،مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة،مج:1،ص:53.

(2) محمد كمال شبانة،مقدمة كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار،ص:29 وما بعدها.

(2) محمد عبد الله عنان :المصدر السابق،ص:36.

(3) المصدر السابق،ص:37.

أملت الأهواء على من صاغوا صك الاتهام للرجل،حتى سيق إلى الموت من أجله،وتوجد من الكتاب نسخة مخطوطة بالرباط بيد أنها ناقصة،ومشوهة»[1].

وقد عارض ابن الخطيب بهذا الكتاب الذي يوصف بأنه (غريب المنزع)ديوان(الصبابة)لابن أبي حجلة التلمساني،وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة، وقد جعله «شجرة ذات أفنان وعمود،مشتمل على القشر والعود،وأوراق وصورة طائر فوقها،ووجد هذا الكتاب صدى عند معاصريه،وأورد لنا ابن الخطيب نفسه إشارة إلى هذا الإعجاب في الرسالة التي وجهها إلى ابن خلدون في حقه يقول: (فجاء كتاباً ادعى الأصحاب غرابته).وتوجد منه عدة نسخ بالخزانة العامة بالرباط،وبالخزانة الملكية،وبخزانة القرويين بفاس...،وقد نشر الكتاب-محققاً-الأستاذ عبد القادر أحمد عطا عام: 1387هـ-1968م،طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة،ثم نشره الأستاذ محمد الكتاني،الأستاذ المحاضر بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط على نحو أكثر دقة،وبمنهج علمي أكثر ضبطاً،ونشره في مجلدين عام:1970م،وألحق به فهارس مختلفة،ومفيدة»[2].

3-بستان الدول(تاريخ سياسي):

يبدو أن هذا الكتاب هو واحد من الكتب التي لم يكملها ابن الخطيب،ويصفه محمد كمال شبانة بأنه «كتاب سياسي شامل،تحدث فيه المؤلف عن القضاء،والحرب،والصناعة،وأهلها،وطبقات الشعب،وأفرد لكل شجرة،بحيث ألف من المجموع هذا البستان »[1]،ويذكر ابن خلدون بأنه من التواليف الصادرة قديماً،وقد أذهبت الحادثة عينه،وشعثت الكائنة زينه،وهو موضوع غريب ما سمع بمثله،وقد اشتمل على شجرات عشر،أولها شجرة السلطان،ثم شجرة الوزارة،ثم شجرة الكتاب،ثم شجرة القضاة والصلاة،ثم شجرة الشرطة والحبسة،ثم شجرة العمل،ثم شجرة الجهاد،وهي فرعان:أسطول،وخيول[2].

4-كناسة الدكان بعد انتقال السكان(وثائق تاريخية):

ألف ابن الخطيب هذا الكتاب إبان إقامته الأولى بسلا،ويحوي مجموعة من الرسائل السلطانية،التي دبجها ابن الخطيب وهو في بداية تجربته الوزارية،وهي رسائل مكتوبة على لسان السلطان أبي الحجاج يوسف إلى أبي عنان فارس المريني،ملك المغرب،في أغراض مختلفة سياسية،وعسكرية، باستثناء وثيقة عقد زواج نصري صدر بها الكتاب.

---

(1) محمد الشريف قاهر:المرجع السابق،ص:98.

(2) المرجع السابق،ص:36.

(3) الرحلة لابن خلدون،ص:129.

ويذكر محمد الشريف قاهر أنه عبارة عن خمس،وعشرين وثيقة سياسية تحدد العلاقة السياسية بين مملكتي غرناطة،وفاس،وقد نشر هذا الكتاب محققاً الدكتور محمد كمال شبانة،وطبع بدار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة[1].

5-اللمحة البدرية في الدولة النصرية:

هذا الكتاب عبارة عن مختصر لتاريخ بني الأحمر ملوك غرناطة،وقد نشرت الطبعة الأولى منه في القاهرة عام:1347هـ[2]،ويعود الفضل في نشره إلى الأستاذ محب الدين الخطيب [3]،وقد وصف هذا الكتاب في تقديمه له بقوله: « هذا كتاب في تاريخ بني الأحمر آخر دول العرب في الأندلس،ألفه عام: 763هـ وزيرهم الأديب الأشهر لسان الدين بن الخطيب،وهو من أجود ما كتبه المسلمون في التاريخ:لتوخي مؤلفه الصدق فيما روى،وبعد نظره في درك الحقائق،ولطف إشارته إلى ما يحسن بمثله ألا يُسرف في التصريح به»[1].

وقد قسمه إلى خمسة أقسام رئيسة:

القسم الأول في ذكر المدينة التي اقتعد هذا الملك سريرها،وأحكم تدبيرها.

القسم الثاني فيما يرجع إليها من الأقاليم،والأقطار على الإيجاز والاختصار.

---

(1) المرجع السابق ص:114.

(2)خير الدين الزركلي:المرجع السابق،ص:235.

(3) اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ،ص:12.

(4) المصدر نفسه، ،ص:13.

(1)محمد كمال شبانة :المرجع السابق،ص:33.

(2)ابن الخطيب:المصدر نفسه،ص:45.

(3)محمد كمال شبانة :المرجع السابق،ص:33.

القسم الثالث فيمن دال بها من أمير،وسلطان شهير.

القسم الرابع في عوائد أهلها، وأوصافهم،على تباين أصنافهم.

القسم الخامس في نسق الدول،واتصال الأواخر منها بالأول،وما يخص كل دولة من الألقاب،والأذيال المستطرفة والأعقاب.

وقد انتهى ابن الخطيب من تأليفه سنة: 765هـ،وذلك وفق ما ذكره في خاتمته،وكان قد بدأه بمدينة سلا،وانتهى منه في غرناطة.

6-رقم الحلل في نظم الدول:

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من القصائد نظمها ابن الخطيب،وشرحها نثراً تتضمن تاريخ عدد من الدول الإسلامية من الخلفاء الأوائل، وبني العباس،وبني الأغلب،وبني أمية بالأندلس،والطوائف،والمرابطين،والموحدين[1].

وتحدث محمد كمال شبانة عن هذا الكتاب بقوله: « نظم شعري في ألف بيت،يتناول فيه المؤلف تاريخ الدولة الإسلامية بالمشرق،والأندلس مذيلاً كل قصيدة بشرح لها،ويقع المؤلف في مجلد واحد طبع بتونس عام:1316هـ،وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو نفسه (الحلل المرقومة)،تبعاً لما جاء في نسخة مكتبة مدريد الوطنية،والتي نسخت عن مخطوطة الأسكوريال(رقم:1776)»[1]

7-معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار:

هو وصف شامل لأهم مدن مملكة غرناطة،ومملكة المغرب الأقصى،وقد تطرق فيه ابن الخطيب إلى النواحي الجغرافية،والتاريخية،والاجتماعية لأغلب المدن التي تناولها [2]،«فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الأندلس مدينة (اسطبونة)،وانتهى بمدينة (رندة)،وهو في تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيباً جغرافياً،ولا تاريخياً،بل ولا أولوياً،فقد كانت مدينة غرناطة مثلاً في المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه،رغم أنها حاضرة المملكة،ولها من المبررات ما يجعلها أهلاً للمرتبة الأولى من وصفه،ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى أياً كانت دواعي التفضيل،وكيفما بلغت أهميته،لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة في وصفه،فيتناولها من معظم ما يتعلق بها،إذ يتحدث عن موقعها الجغرافي،ومكانتها التاريخية،وحالة سكانها

---

(1)الحسن بن السائح:المرجع السابق،ص:84.

(1) الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة،المقدمة،ص:29.

(2) المصدر نفسه،ص:19.

الاجتماعية،فيعطينا صورة واضحة–إلى حد بعيد– عن كل مدينة تناولها قلمه »[1]،والكتاب يتألف من مجلسين،أو فصلين،وقد بناه على طريقة المحاورة.

8–الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة(تراجم):

يضم هذا الكتاب، بين طياته، تراجم لمجموعة من الأدباء،والكتاب،والعلماء،والمقربين،والفقهاء،والخطباء،والشعراء الذين عاصرهم ،والتقى بهم،كما يحوي نماذج من آثارهم شعرية،ونثرية،وقد ذكر ابن الخطيب في ديباجته أنه جمع فيه «جملة وافرة،وكتيبة ظافرة،ممن لقيناه ببلدنا الذي طوينا جديد العمر في ظله ما بين من تلقينا إفادته،وأكرمنا وفادته،وبين من علمنا وخرجنا،ورشحنا،ودرجنا،ومن اصطفيناه،ورعيناه فضلاً صنعناه»[2].

وقد تولى تحقيقه إحسان عباس،الذي ذكر في المقدمة التي كتبها له أن ابن الخطيب كان يكتب (الكتيبة الكامنة)في جمادى الآخرة من عام: 774هـ،وقدم لمحة عن الكتاب فأشار فيها إلى أن ابن الخطيب ترجم فيه لثلاثة أشخاص ومائة «جعلهم في قسمين كبيرين:الذين قضوا نحبهم قبل تأليف الكتاب (من رقم1–84)والذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة عند تأليفه (من رقم85–103).وفي هذه القسمة شيء من التجوز فإن بعض الذين ترجم لهم في القسم الأول عاشوا بعد وفاة ابن الخطيب نفسه مثل القاضي النباهي.ثم قسم المترجمين حسب ما غلب على كل واحد منهم فجاءوا في الطبقات الآتية:

1–طبقة الخطباء والصوفية(1–19)وحظهم في الإجادة قليل.

2–طبقة المقرئين والمدرسين(20–30)وهم أقل شأناً من الطبقة السابقة في باب الشعر.

3–طبقة القضاة (31–54)وهي طبقة منحطة في البيان لاقتصار مداركها على علوم الأديان،ويندر فيها المجيد.

4–طبقة من خدم أبواب الأمراء من الكتاب والشعراء (55–103)،وربما كانوا متميزين بالإجادة أكثر من أفراد الطبقات السابقة»[1].

ويرى إحسان عباس أن كتاب (الكتيبة الكامنة)على اعتبار أنه يقوم على السجع فهو قليل الفائدة من الناحية التاريخية الإخبارية مقارنة مع كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة)،ولكنه في جميع الأحوال يقدم صورة عن الحياة الأدبية في القرن الثامن بالأندلس.

9-أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام،وما يجر ذلك من الكلام:

يذكر جرجي زيدان أن اسمه (الإعلام بمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام) ويصفه بأنه «يدخل فيه أكثر تاريخ الأمويين،والعباسيين،ودول المشرق،والمماليك البحرية،والدولة العلوية بمكة والمدينة،وتاريخ الأندلس إلى محمد بن يوسف،والملوك النصارى فيها،وتاريخ المغرب.منه نسخة في الجزائر.وطبع بالرم سنة:1910م»[1].

ويبدو أن هذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب،حيث وجهه للوزير أبي بكر بن غازي عقب وفاة السلطان عبد العزيز المريني [2]،وتنصيب ابنه الطفل سعيد سلطاناً مكانه،وقد قسمه إلى جزأين الأول خاص بالشرق الإسلامي،والثاني خاص بتاريخ الأندلس،وقسم آخر لم يكمله خصصه لتاريخ إفريقية،والمغرب،وقد كان هدفه من وضع هذا الكتاب إثبات أن ما حدث مع الطفل سعيد هو أمر طبيعي،وتصرف صائب،وغير مخالف لتعاليم الدين الإسلامي،وله الكثير من النظائر في التاريخ الإسلامي[1]

10-ريحانة الكُتَّاب،ونُجعة المُنتاب(ألوان أدبية وسياسية):

يذهب الباحث محمد عبد الله عنان أن هذا الكتاب من أهم كتب ابن الخطيب بعد كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»،وهو عبارة عن جملة من المقتبسات من مؤلفات عدة له،ويقع في مجموعة أسفار [2]،وقد فصل ابن الخطيب في ديباجته محتوياته فذكر أنه يشتمل على:تمهيدات من أوائل المصنفات،وفي هذا الباب اختار نبذاً

---

(1) تاريخ آداب اللغة العربية،مج2،ص:226.

(2) ينظر:محمد الطيب محمد عبد المانع وإبراهيم عبد الرحيم يوسف:تاريخ الأدب والنصوص الأدبية،ص: 459. (3)محمد عبد الله عنان:المصدر السابق،ص:57.

(1) المصدر السابق،ص:59 وما بعدها.

(2)المقري:نفح الطيب،مج5،ص:108.

(3)أحمد مختار العبادي:مقدمة كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب،ص:7 وما بعدها.

(4) محمد الشريف قاهر:المرجع السابق،ص:103.

من كتب،ورسائل سابقة له [1]،كما ضمنه طائفة من الرسائل السلطانية التي كتبها ابن الخطيب عن سلاطين غرناطة،وفيه رسائل كتبت في مخاطبة الرعية،وظهائر الأمراء،ورسائل إلى الأصدقاء،والقضاة،كما أن فيه مقامات،وفكاهات،ودعابات

11-نفاضة الجراب في علالة الاغتراب:

وهو واحد من كتب ابن الخطيب التي تكتسي أهمية بالغة،ووجه أهميته يكمن في أنه يحوي مذكرات ابن الخطيب الشخصية،ومن حيث الحجم هو كتاب ضخم،ويقدم صورة وافية عن فترة من أهم فترات حياته [2]،حينما كان يعيش في المغرب تحت لواء الدولة المرينية،فوصف في هذا الكتاب حالته
الاجتماعية،والاقتصادية،والثقافية،التي يعيشها المغرب في تلك الفترة،وقد ذكر ابن الخطيب أنه يقع في ثلاثة أسفار مرة،وأربعة مرة أخرى[3].

12-مقنعة السائل عن المرض الهائل:

وهي رسالة طبية تطرق فيها ابن الخطيب للطاعون الذي حل بالأندلس،وحوض البحر الأبيض المتوسط في سنة:749هـ(1948م).

13-الإشارة إلى أدب الوزارة:

رصد في هذا السفر واجبات الوزير،وسلط الضوء على مجموعة من الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن يتقلد هذا المنصب.

14-خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف:

أصل هذا الكتاب رسالة كتبها سنة: 748م، وصف فيها رحلة السلطان أبو الحجاج التي قام بها في بعض مدن المملكة.

15-المنهل العذب في شرح أسماء الرب(مخطوطة).

16-تأليف في الأدب(مخطوطة).

17-الوصول لحفظ الصحة في الفصول:

وهو كتاب طبي،تذكر المصادر أنه ألفه سنة:771هـ بغرناطة.

18-استزال اللطف الموجود في سر الوجود:

19-جيش ألة وشيح:

ذكر الدكتور محمد الشريف قاهر أنه كتاب يتضمن مجموعة مختارة من موشحات ستة عشر من أئمة التوشيح بالأندلس،أورد لهم ابن الخطيب في جيشه خمسة،وستين،ومائة موشح.

20-مفاخرة بين مالقة وسلا:

وهي رسالة،وتذكر كذلك بعنوان:« مفاضلة مالقة وسلا».

21-في فن العلاج في صنعة الطب.

22-مثلى الطريقة في ذم الوثيقة.

23-السحر والشعر.

24-أوصاف الناس في التواريخ والصلات.

25-تافه من جم ونقطة من يم.

26-الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة.

27-طرفة العصر في أخبار دولة بني نصر.

28-رسائل في الفلسفة.

29-رسائل في الفقه.

30-مساجلة البيان.

31-النفاية بعد الكفاية.

32-كتاب المحبة.

33-المنح الغريب في الفتح القريب.

34-تلخيص الذهب في اختيار عيون الكتب.

35-الألفية في أصول الفقه.

36-المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية.

37-رسائل في الموسيقى.

38-المختصر في الطريقة الفقهية.

39-فتات الخوان وسقط الصوان.

40-رسالة تكوين الجنين.

41-الرجز في عمل الترياق.

42-البيطرة والبزرة.

43-عائد الصلة.

44-خلع الرسن في وصف القاضي أبي الحسن.

45-اليوسفي في الطب.

46-الاكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر.

47-الأرجوزة المعلومة.

48-تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة.

49-منظومة في سياسة الملوك.

50-ظل الغمام المقتضب من الصيب والجهام.

لقد عني كثير من الدارسين بتعداد آثار ابن الخطيب،ويبدو أن حماستهم الزائدة،وعاطفتهم المبالغ فيها ،ورغبتهم في تضخيم شخصيته دفتعهم إلى أن ينسبوا إليه عدداً كبيراً من الكتب،ويرجع الفضل في الكشف عن كتبه المنسوبة إليه إلى الباحث محمد التطواني،وقد حصرها في:

1-شرح الألفية.

2-تحفة الألباب في شكل الأسماء والأنساب.

3-أوصاف الناس في التواريخ والصلات.

4-المحاضرات.

5-مركز الإحاطة.

6-الحلل الموشية في الأخبار المراكشية.

7-الإماطة عن وجه الإحاطة.

8-المختصر في الطريقة الفقهية.

9-درة التنزيل وغرة التأويل(للخطيب الإسكافي).

10- قصيدة أنجم السياسة التي تنسب للوزير أبي محمد المالقي،وللسان الدين بن الخطيب،وللرئيس أبي القاسم بن رضوان،وقد نسبها إلى لسان الدين محمد بن عبد الله الدمناتي،بإشارة من أبي عمه أبي العباس القاضوي الذي ندبه لشرحها نجل السلاطين مولاي ابن عبد الله هشام،وهذا غلط لأن القصيدة لا توجد بديوان ابن الخطيب،وتنفرد عن أسلوبه الشعري والتاريخي.

11-المقامات لابن الخطيب في السياسة:وهي حضرة الارتياح المغنية عن الراح لابن أبي حاتم الغائلي،وتنسب إلى ابن الخطيب خطأ[1].

وبالنسبة لشعر لسان الدين ابن الخطيب فأغلب الدارسين يذهبون إلى أن شعره يتسم بالرقة،والعذوبة،فهو«شاعر ،وشاح،مترسِّل،كاتب، وهو يمثل-على أكثر من وجه-حركة الأدب في القرن الثامن الهجري،وإن لم يكن المقدم على شعراء عصره.ولكن غزارة نتاجه،ووفرة شعره بين أيدينا تجعل الحديث عنه صالحاً للمقايسة،والمقابلة

---

(1) الحسن بن محمد السائح:المرجع السابق،ص:87،وما بعدها.

ويسيطر على شعر لسان الدين جانبان:الوجدانيات الخاصة به من شعر ذاتي،كالتأمل،والغزل،ووصف الطبيعة الأندلسية(غرناطة وما حولها)والتعبير بالشعر عن جوانب الحياة من وجهة نظر الشاعر المتأمل...وما يخص نفسه،وأسرته،وحياته الخاصة.

والجانب الآخر: استخدام الشعر وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي،وخصوصاً شعر المديح الذي كان يقدّمه-كغيره من شعراء العصر-إلى البلاط النصري في المناسبات،والاحتفالات،والأعياد...والشعر الذي جعله تصويراً للأحداث العامة.

ويتابع لسان الدين سلسلة الشعراء الذين سخروا الشعر لتدوين التاريخ،وكتابه (رقم الحلل في نظم الدول)مثال لذلك لأنه منظومة في تلخيص التاريخ الإسلامي،وتلخيص تاريخ الأسرة النصرية إلى زمانه.

ومن هنا اتسم شعره أحياناً بما يتسم به شعر البديهة،والسرعة،والارتجال أحياناً.وكتن صورة عصرّية حيّة تعين على تكميل تاريخ الفترة،ودراستها.

ولسان الدين بن الخطيب -على العموم-شاعر طويل النفس مقتدر على إطالة القصائد.وفي شعره لمحات دالة باستمرار على ثقافته الواسعة،ومخزونه التراثي الغزير الذي يحسن استخدامه.

ويمتاز الشاعر على الجُملة بالتمكن اللغوي،وتراص البناء الشعري،وسيطرة الفكرة أحياناً على حساب العاطفة.ومحاولة الشاعر باستمرار أن يعتمد أسلوب التصوير،والتخييل،وأن يشحن القصيدة-أو القطعة-بما يستطيع من طاقة غنائية موسيقية»[1].

ويذهب ابن الأحمر إلى القول إن ابن الخطيب هو «شاعر الدنيا،وعلم المفرد،والثنيا،وكاتب الأرض إلى يوم العرض،كما قال فيه بعض أعلام النقد القديم:شعره ما بعده مطمع لطامع،ولا منعرج على شاعر بعده للآذان،والمسامع،وهو رأي لا يختلف فيه النقاد القدماء الذين رأوا في ابن الخطيب شاعراً عظيماً،والواقع أن الشعر الأندلسي صب آخر جداوله في غرناطة حيث كان ابن الخطيب بلغ مرحلة النضج،وتجاوز التهافت على المحسنات البديعية،وتقليد أدب المشارقة،وأصبح قادراً على التعبير الصادق،والتوجيه السديد،فكانت قصائد ابن الخطيب تواكب الأحداث،وتساير حركة التاريخ،وتعبر عن ذلك في صدق،ووضوح،كما كانت له قصائد غنائية تصور عبث الحياة في غرناطة حين تتناسى الحروب،والكروب»[2].

وقد طرق ابن الخطيب مختلف الأغراض،والفنون الشعرية المعروفة في عصره كالشعر الديني،والغزل،والمدح،والرثاء،والإخوانيات،وغيرها.

---

(1) محمد رضوان الداية:الأدب الأندلسي والمغربي-أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي-،ص&258.

(1) الحسن بن محمد السائح:المرجع السابق،ص:55.